جَدّي والشيخُ العجـــــوز
Grandfather and old man

يُمْلَكُ البحرُباليدينِ، وتُمْلَكُ الأرضُ بالشَّفَتيْنِ

أمَا ترَى البحرَيَعلُو فوقَهُ جِيَفٌ وتَستَقِرُّبأقصىَ قَعْرِهِ الدُّرَرُ

الإمام الشافعي

بِلادِي وإنْ جَارَتْ عَليَّ عزيزةٌ وَقَوْمِي وإنْ ضَنُّوا علَيَّ كِرامُ

قتادة بن إدريس

جَدِّي وَالشَّيخَ الْعَجُوْزَ

صَهَلَتْ الذِكْرَيَاتُ وَضَرَبَتْ بِحَوَافِرِهَا فِي أَنْحَاءِ رَأْسِي، فَتَطَايَرَ الْغُبَارُ، مُوْقِدًا شَرَرًا وَلَهِيبًا، حِيْنَمَا تَذَكَرْتُ جَدِّي، وَالشَّيخَ الْعَجُوْزَ، جَلَسْتُ أَعِدُّ حَبَاتِ عُمْرِي، وَأَرُصُّ الْذِكْرَيَاتِ كَبَائِعِ فَاكِهَةٍ لَمْ يَشْتَرِ مِنْهُ أَحَدٌ مُنْذُ سَنَوَاتٍ، كَانَتْ عِشْرِينَ سَنَةً كُلُهَا عِجَافٍ، جَلَسْتُ كَشَبَحٍ طَوَاهُ الزَّمَنُ وَالْسُنُونَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ مُنْذُ آلَافِ السِنِينِ .

كَانَ شَيْخًا عَجُوْزًا هَرِمًا يُجَالِسنَا عَلَى شَاطِئِهِ كُلَّمَا هَرَبْنَا إِلَيْهِ، نَسْتَجِيرُ بِهِ مِنْ الرَّمْضَاءِ، نُسَامِرُهُ وَيُسَامِرُنَا، نَهُشُ إِلَيْهِ وَنَهْرَبُ إِلَيْهِ كُلَمَا أَحْدَقَتْ الصَّحْرَاءُ بِنَا، وَضَرَبَتْ بِحَوَافِرِهَا رُؤُوْسَنَا مِنْ لَهِيبِ الشَّمْسِ الْمُحْرِقَةِ، وَغُبَارِ الصَّحْرَاءِ الْقَاحِلَةِ، كانَ يَهُشُ إِلَينَا يَفْتَحُ ذِرَاعَيهِ يَحْتَضِنُنَا وَيَفْرَحُ بِنَا، فَيَأخُذَنَا بَعِيدًا بَعِيدًا فِي عَرضِهِ وَوَسَطِهِ الّذِي لَا نِهَايَة لَهُ، يُطْعِمُنَا مِنْ أَسْمَاكِهِ، وَيَجُوْدُ عَلَيْنَا بِلُؤْلُؤِهِ وَيَاقُوْتِهِ وَمَرْجَانِهِ، ثُمَّ يَعُوْدُ بِنَا إِلَى الْشَّاطِئِ وَيُوَدِعُنَا؛ فَيَفْرَحُ الأَهْلُ وَالخِلَانِ وَالْكِبَارِ وَالْصِغَارِ؛ لأَمَانَتِهِ وَصِدْقِهِ المَعْهُودِ، وَيَدْعُوْنَ لَهُ لَيلَ نَهَارٍ بَأَنْ يَدُوْمَ عَلَيّهِ الخَيرَ الْوَفِيرَ، وَأَنْ يُبْقِيَهُ لَنَا رَغْمَ كِبَرِ سِنْهِ، فَقَدْ تَسَاقَطَتْ أَسْنَانُهُ، وَانْحَنَى ظَهْرُهُ كَعرجُوْنٍ قَدِيمٍ أَكَلَ عَلَيهِ الْدَّهْرُ وَشَرِبَ .

كَمْ مَرَّةٍ غَضِبَ فَيَحْتَوِينَا فِي قَاعِهِ، وَيُطْعِمُنَا لَأَسْمَاكِهِ رَضِينَا أَمْ أَبَيْنَا؛ إِنْ تَأَفّفَنَا مِنْهُ أَوْ كَسَّرْنَا لَهُ أَمْرًا، كَانَ جَدِّي فَخُوْرًا حِيْنَمَا كَانَ يَمْتَطِي صَهْوَتَهُ فِي وَضَحِ النَّهَارِ، وَتُوَدِعُنَا عَيْنَاهُ وَتُلَوِحُ لَنَا يَدَاهُ، وَتَصْغُرُ وَتَصْغُرُ كُلَّمَا بَعُدَ وَسَارَ مَعَهُ إِلى وَسَطِهِ وَهَا قَدْ بَلَعَهُ وَلَمْ نَرَ سِوَى نُقْطَةٍ بَعِيدَةٍ فِي وَسَطِه الْهَائِجِ، لَقَدْ غَابَ عَنْ أَعْيُنَنَا كَفِكْرَةٍ لَمَعَتْ لِلَحَظَاتٍ ثُمَ انْطَفَأَتْ فَلَا أَثَرَ لَهَا فِي الْكَوْنِ أو المَوجُوَدَاتِ، حِينَئِذٍ نُوَلِي وُجُوْهَنَا شَطْرَ بِيُوتِنَا، بَاكِينَ مُتَبَاكِينَ حِينَهَا تَتَلَفَتْ قُلُوبُنَا إِلَى جَدِّي حَيْثُ النُّقْطَةُ

اللَّانِهَائِيَّةُ .

كُنْتُ أَرْتَجِفُ خَوْفًا، كَمَا كَانَتْ أُمِّي تَذْرِفُ الدَّمْعَ، كُلَّمَا رَكِبَ جَدِّي صَهْوَةَ هَذَا الجَوَادِ الْكَاسِرِ الَّذِي لَا يَرحَمَ، يُعطِي وَيَمنَعُ وِفقًا لمزَاجِهِ، فِي لَمحِ البَصَرِ... أَعُودُ إِلَى كُتُبِي وَأَمْضغُ صَبْرِي، وَأُشْعِلُ مِنْ أَفْكَارِي قِنْدِيلاً يُضِيئُ لِي الدَّربَ أو شُعَاعًا يَمْتَدُ نَحْوَ الأُفُقِ الَّذِي تَنَاهِى فِي عرضِ الْبَحر الهَائِجِ، أَتَوَقعُ يَوْمًا مِنْ الَأيَامِ أنْ يَعُودَ هَذَا الجَوادُ بِجَدي كَمَا أَخَذَهُ، لَمْ أُفَكِرْ فِيمَا سَيأتِي بِهِ أَكْثَرَ مِمَا كُنْتُ أُفَكِرُ.. هَلْ سَيَأْتِي أَمْ لَا .. لَقَدْ ابْتَلَعَهُ الأُفقُ .. أينَ هُوَ؟ أَيْنَ أَنْتَ يَا جَدي .. ؟!

تِلْكَ الذِكْرَيَاتُ الجَامِحَةُ الّتِي تُصْهِلُ فِي صَدْرِي كُلّمَا تَذَكَرْتُهَا وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا قَرَارَةَ رَأْسِي، وَتَقْدَحُ شَرَرًا بِحَصَوَاتٍ فِي رَأْسِي كُلَّمَا تَسَابَقَتْ ...

تَحَسَّستُ مَقْعَدِي الْوَثِير فِي الْطَائِرةِ الّتِي تَقِلنِي، وَهَا أَنَا فَوْقَ السَّحَابِ وَفَوْقَ الْغَمَامِ، أَنْظُرُ مِنْ كُوةٍ لِأَرَى ذَاكَ السَّرَابَ الَأزْرَقَ الممْتَدَ عَلَى الْأرضِ، وَالّذِي لَا نِهَايةِ لَهُ وَلَا حُدُودَ .. حِينَهَا صَهَلَتْ الذّكرياتُ المُنْدَسَّةُ فِي أَعْمَاقِي، وَرَاحَتْ حَوَافِرُهَا تَضْرِبُ فِي أَنْحَاءِ رَأْسِي المَوْجَعَة، وَتَطَايَرَ الغُبَارُ حَتَى حَجَبَ الْرُؤْيَةَ الْوَاضِحَةَ أَمَامَ بَصَرِي ..

أَمْوَاجُهُ الْعَاتِيَةُ تَعْلُو وَتَهْبِطُ .... وَجَدِّي يَسْبَحُ عَلَى ظَهْرِهِ وَيَعْلُو مَعَ الَأمْوَاجِ وَيَهْبَطُ، لَا.. إِنَّهُ يَرْقُدُ فِي جَوْفِ سَمَكَةٍ كَبِيرَةٍ نَامَتْ أَسْفَلِ الْبَحْرِ تَحْمِيهِ وَتُغَذِيهِ وَتُدَفِئُهُ وَتَحْرُسُهُ مِنْ سِبَاعِ البَحْرِ.. حَتْمَا لَابُدْ أَنْ يَكُوْنَ حَيًّا؛ لَأَنَّ الَأسْمَاكَ الّتِي مَعَهُ حَيّةٌ، مُنْذُ أَنْ صَاحِبَهَا فِي الْبَحْرِ، عُمْرُهُ عُشْرُوْنَ عَامًا فِي الْبَحْرِ كَمَا هُوَ عُمْرِي أو أَقْرَب، أَلَيسَتِ الَأسْمَاكُ تَعِيشُ تِلْكَ السّنِينَ ؟ إِنْنِي أُشَاهِدُ الْبَحْرَ كُلَّهُ، لَيْتَنِي أَعْرِفُ جَوْفَ تِلْكَ السَمَكَةِ فَأَنْزِلُ وَأَحْتَضِنُ جَدِّي الّذِي اسْتَقَرَ فِيه مُنْذُ عِشْرِيْنَ عَامًا ...

تُوْقِظُنِي المُضِيفَةُ مِنْ ثُبَاتٍ عَمِيقٍ، قَائِلَةً :

.تَفَضَلْ ...

.أَيْنَ ... ؟!

.قَدْ وَصَلْنَا مَطَارَ...

قَبْلَ أَنْ أَسْحَبَ حَقِيبَتِي، تَحسستُ جَوَازَ سَفَرِي، وَتَأَمَلْتُ صُوْرَتِي الّتِي تَرْقُدُ فِيهِ، أَحْسَّسْتُ بِأَنَّ بَلَدِي وَوَطَنِي يَرْقُدُ دَاخِلِي، وَأَنَا عَلَى مَشَارِف أَبْوَابِ الغُرْبَةِ وَالخُرُوْجِ مِنْ بَابِ الطَائِرَةِ .

صَخَبُ الحَيَاةِ تَسَاوَى مَعْ صَخَبِ الأَمْوَاجِ الْهَادِرَةِ فِي عُرْضِ البَحْرِ وَهَدِيرِ الذِّكْرَيَاتِ الجَامِحَةِ وَالّتِي تَضْرِبُ بِرَأْسِي لَيْلَ نَهَارٍ، لَمْ أَعُدْ أَسْمَعُ إِلَا أَنِيْنًا وَصَهِيلاً لِتِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ الّتِي تَجُوْبُ الصَّحْرَاءَ، وَتَوَجْعَاتِ سَمَكَةِ الْقِرْشِ الَّتِي تَحْتَضِن جَدِّي فِي عرْضِ البَحْرِ، فقَدْ حَاوَلَتْ مِرَارًا أنْ تُكَفِّرَعَنْ سَيئَاتِهَا، وَتَرُدَّ جَدي لَنَا، وَلَكِنْ ضَلّتْ الطَّرِيقَ، حَلِمْتُ بِأَنَّ الذِّكْرَيَاتِ تَحْمِلُنِي عَلَى ظَهْرِهَا وَتَعُوْدُ بِي إِلَى أُمِّي الَّتِي ذَرَفَتْ دَمًا عَلَى غِيَابِ جَدِّي مُنْذُ عِشْرِيْنَ عَامًا،كَمَا أَحِسُّ بِأَنَّ الْغَدْرَيَمْلَؤُنِي .

فَجْأَةً كَانَ التَّصْمِيمُ وَالتَّحَدِي لِكُلِّ الذِّكْرَيَاتِ الّتِي بَاتَتْ تَصْهِلُ فِي رَأْسِي، وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا مُحْدِثَةً شَرَرًا وَجَلَبةً كُلَّمَا اصْطَكَتْ حَوَافِرُهَا بِصُخُوْرِ رَأْسِي الْعَاتِيةِ الْمُلْتَهِبَة، كَانَ الْبَحْرُرِسَالةً .. كَمَا كَانَتْ أمي رِسَالَةً .. وَكَانَ وطني رِسَالَةً ..

أنْهيتُ عَمَلي عَلَى أكمَلِ وَجْهٍ، وَعِشْتُ مُتَحَدياً نَفْسِي بأنَّ الزَّمَنَ سِبَاقٌ، والنَّجَاحَ حَلِيفُهُ الصِّدْقُ والإخلاصُ، تَوَجْتُ رِحْلَتِي وَرِسَالَتِي بِكَلِمَةٍ أَلْقَيتُهَا فِي مُؤْتَمَرٍ تَعَددتْ فِيهِ الجِنْسِيَاتُ كَمَا تَعَدَدَ فِيهِ الذُكُورُ وَالإنَاثُ، وَكُنْتُ وَاحِدًا مِمَنْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ وَطَنَهُ الجَرِيح، صَفَّقَ الحُضُورُ حِينَمَا قُلْتُ بِأَعْلَى صَوتِي وَقَدْ ذَرَفَتْ عيناي : أنا ... وَقْتَهَا لَمْ أَرَ فِي القَاعَةِ سِوَاي، كَانَتْ جُفُونِي مُطْبَقَةً عَلَى مُقْلَتَي عَيني، فَكَانَ التَّصْفِيقُ قَدْحٌ لِتِلكَ الحَوافِرِ المُسَننةِ المُدَببةِ لِخيولٍ تَعُودُ بِي حَيْثُ وَطَنِي الأبِي الجَرِيح ....

حَزَّمْتُ حَقِيبَتِي وَصَعدتُ سُلّمًا أتَلَفَّتُ يَمينًا وَيَسَارًا أبحَثُ عَنْ رَقَمِي، هَاهو ذا بجوارِ نَافِذةٍ مُدَوَّرَةٍ سُرِرْتُ فِي نَفْسِي لأنَنِي سَوْفَ أَنْظُرُ مِنْهَا إلى السَّحُبِ وَالضَّبَابِ وَالغُبَارِ كَأحْصِنَةِ المِرْمَاحِ فِي أَرْضِ السِبَاقِ،

وَهَا هِي انطلَقَتْ بِنَا فِي لَمْحِ البَصَرِ تَشُقُّ العُبَابَ وَتَعْدُو فِي بَحْرِ الظُّلُمَاتِ الَّذِي لا نِهَايَةَ لَهُ وَلا حُدُود، نَظَرْتُ فإذا ببيوتٍ كَعِلَبِ الكِبريتِ قَدْ اصْطَفَتْ وَبَينَهَا خُطُوطٌ تَتَداخَلُ، يَركضُ فَوقَهَا نَمْلٌ أَبْيَضٌ وَأَسْودٌ تَكْبُرُ أَمَامَ بَصَرِي كُلَمَا خُيلَ لِي بَأَنَنِي أَقْتَربُ، وحِينَمَا تَوقَفَتْ وَجَدتُ نَفسِي تُلامِسُ الأَرضَ وَالتُرابَ، وَكأَنَّمَا كُنْتُ فِي نَومٍ عَمِيقٍ وَحُلمٍ، كُنْتُ أُشَاهِدُهُ عَنْ كَثَبٍ، كَانَ الهَوَاءُ الَّذِي عَبَّأَ صَدْرِي جَعَلَ كُلَّ ذَرَّةٍ فِي كَيَانِي تَلْهَجُ بِالتَسبيحِ وَالحَمدِ للهِ، فَوَطَنِي بَاقٍ كَمَا أَنَا بَاقٍ، عِنْدَهَا أَخَذْتُ شَهِيقاً وَزَفِيرًا مِرَارًا وَتِكْرَارًا، وَعَادَتْ الذِّكْرَيَاتُ كَأَحْصِنَةٍ تَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا بِكُلِ قُوَةٍ فِي قَرَارَةِ رَأْسِي؛ لِتُعِيْدَ لِي المَاضِي وتَزُفُ نَجَاحِي وَفَرَحِي، وَتَضْرِبُ بِحَوَافِرِهَا، تُسَابِقُ الزَّمَنَ، وَنَحْنُ نمتَطِي ظُهُوَرَهَا شَوْقًا لِبِلَادِنَا الحَبِيبَةِ !! ...